الفصل الثالث

# آخر شعب حي جزر بتكارين وهندرسون

**بتكارين قبل باونتي ■ ثلاثة جزر مختلفة ■ التجارة**
**نهاية الفيلم ■**

قبل عدة قرون، جاء مهاجرون إلى أرض خصبة غنية بما يبدو أنها موارد طبيعية دائمة. على الرغم من افتقار الأرض لبضع مواد أولية ضرورية للصناعة، إلا أنه سرعان ما تم الحصول عليها عبر تجارة ما وراء البحار مع أراضٍ أكثر فقراً كانت تحتوي على احتياطيات منها. لبعض الوقت، ازدهرت كل الأراضي وتضاعف عدد سكانها.

لكن عدد سكان الأرض الغنية وصل أخيراً إلى أرقام لم تستطع حتى مواردها الوفيرة توفير سبل العيش لهم. بعد أن تم قطع غاباتها وتعرية تربتها، لم تعد إنتاجية زراعتها كافية آنذاك لتقديم فائض للتصدير، ونتج عن ذلك نقص في استيراد المواد الخام. واندلعت الحرب الأهلية، بعد أن تم إنهاء عمل المؤسسات السياسية المحدثة من قبل قادة عسكريين محليين يتغيرون باستمرار. وبقي الناس الذين يتضورون جوعاً في الأرض الغنية على قيد الحياة بأكل لحوم البشر. لقي شركاؤهم التجاريون السابقون في ما وراء البحار مصيراً أسوأ حتى؛ كانوا محرومين من المستوردات التي يعتمدون عليها، دمّروا بالمقابل بيئاتهم حتى لم يبق أحد على قيد الحياة.

هل يشكل هذا التصور الكئيب مستقبل الولايات المتحدة وشركائها التجاريين؟ لا نعرف بعد، لكن هذا التصور كرّر نفسه حتى الآن على ثلاثة جزر استوائية في المحيط الهادئ. تشتهر إحداها، بتكارين، بأنها جزيرة «غير مأهولة» كان المتمردون على متن سفينة جلالة الملكة باونتي قد هربوا إليها سنة 1790م. اختاروا بتكارين لأنها كانت غير مأهولة حقاً في ذلك الوقت، وبعيدة، ومن ثَمَّ توفر مكاناً للاختباء من البحرية البريطانية التي

obeikandl.com

كانت تبحث عنهم. لكن المتمردين وجدوا فعلاً أرضية معبد، ونقوشاً على الصخر وأدوات حجرية تقدم دليلاً قاطعاً على أن بتكارين كانت سابقاً موطناً لسكان بولينسيان قدماء. إلى الشرق من بتكارين، بقيت جزيرة أكثر بعداً تدعى هندرسون غير مأهولة حتى يومنا هذا. حتى الآن، تعد بتكارين وهندرسون بين الجزر التي يصعب حقاً الوصول إليها في العالم، دون أي حركة جوية أو بحرية منتظمة إليها، ولا يزورها سوى يخت أو سفينة نزهة بين الحين والآخر. تحمل هندرسون، أيضاً، علامات كثيرة على أنها كانت مأهولة سابقاً من قبل شعب بولينسان سابق. ما الذي حدث لأهل جزيرة بكتارين الأصليين أولئك، وأقاربهم على هندرسون الذين اختفوا؟

سردت الكثير من الكتب والأفلام رومانسية وغموض متمردي سفينة جلالة الملكة باونتي على بتكارين، التي يوازيها غموضاً النهاية المبكرة لهذين الشعبين. كانت معلومات رئيسة عنهما قد انبثقت أخيراً من تنقيبات حديثة قام بها مارشال فايزلر، عالم آثار في جامعة أوتاغو في نيوزلندة، قضى ثمانية شهور في هذين الموقعين المعزولين. ثبت أن مصيري أهل جزيرتي بتكارين وهندرسون كانا مرتبطين بكارثة بيئية بطيئة على بعد مئات الأميال عبر المحيط على جزيرة شريكهم التجاري الأكثر سكاناً، منغريفا، التي ذاق شعبها شظف العيش. لهذا، كما قدمت لنا جزيرة الفصح أوضح مثال عن الانهيار نظراً لتأثيرات البشر في البيئة مع أقل ما يمكن من العوامل المعقدة الأخرى، تمدّنا جزيرتا بتكارين وهندرسون بأوضح مثالين عن الانهيار الذي يتسبب به تداعي شريك تجاري تضرر بيئياً: نظرة عامة على المخاطر التي تظهر اليوم بما يتعلق بالعولمة الحديثة. أسهم الدمار البيئي على بتكارين وهندرسون نفسيهما أيضاً في الانهيار هناك، لكن لا يوجد دليل على دور لتغير المناخ أو وجود أعداء.

منغريفا، وبتكارين وهندرسون الجزر الوحيدة المأهولة في منطقة تعرف بجنوب شرق بولينسية، لا تضم بخلاف ذلك سوى بعض الجزر المرجانية مع قلة من السكان أو الزوار المؤقتين لكن لا وجود لأشخاص يسكنون فيها بشكل دائم.

تم استيطان تلك الجزر المأهولة الثلاث في وقت ما نحو 800 بعد الميلاد، بوصفها جزءاً من توسع البولينسيان نحو الشرق الذي شرحناه في الفصل السابق. حتى منغريفا،

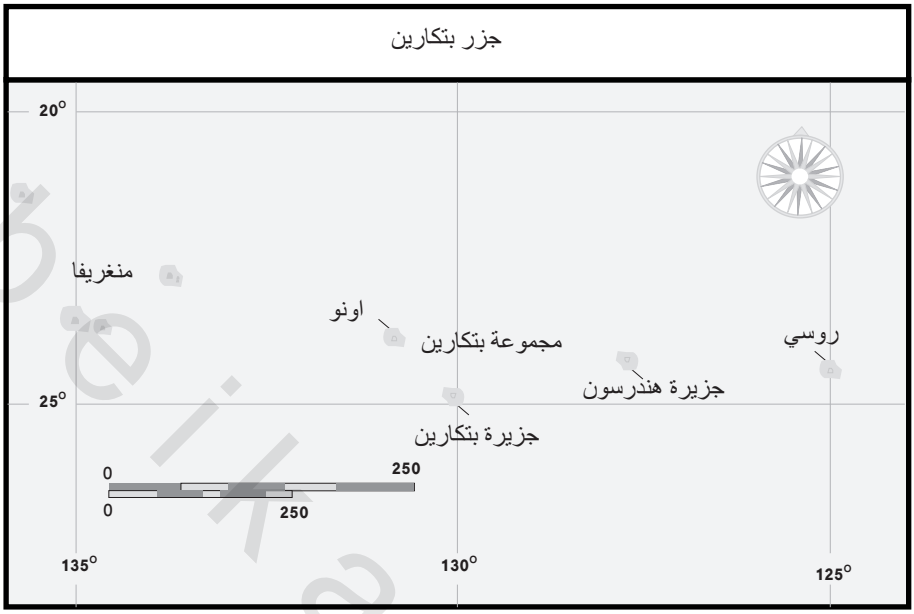


أبعد الجزر الثلاث إلى الغرب والأقرب من ثَمَّ إلى البقاع التي كانت مأهولة سابقاً في بولينسية، تقع على بعد نحو ألف ميل من أقرب جزيرة مرتفعة كبيرة، مثل سوسايتي (بما في ذلك تاهيتي) إلى الغرب وماركيز إلى الشمال الغربي. تقع سوسايتي وماركيز بالمقابل، وهما أكبر جزيرتين وأكثرها سكاناً في شرق بولينسية، على بعد أكثر من ألف ميل إلى الشرق من أقرب جزيرة مرتفعة في غرب بولينسية وربما لم يتم استيطانهما إلا بعد 2000 سنة من استيطان غرب بولينسية. لهذا، كانت منغريفا وجاراتها بقاعاً معزولة ضمن الشطر الشرقي لبولينسية. ربما تم احتلالهما من أهل ماركيز أو سوسايتي أثناء الهجمة الاستعمارية نفسها التي وصلت إلى جزر هاواي والفصح الأكثر بعداً، وأنجز ذلك استيطان بولينسية.

من بين تلك الجزر المأهولة في جنوب شرق بولينسية، الوحيدة التي استطاعت تقديم سبل العيش لأكبر عدد ممكن من السكان، التي توافرت بها موارد طبيعية وفيرة مهمة للبشر، كانت منغريفا. تتألف من بحيرة ضحلة قطرها 15 ميلاً، يحميها حيد بحري خارجي، وتحتوي اثنتي عشرة جزيرة بركانية مهمدة وبعض الجزر البركانية وتصل مساحتها الإجمالية إلى 10 أميال مربعة. تمتلئ البحيرة الضحلة، وحيدها البحري

والمحيط خارج البحيرة بالأسماك والمحار. ويمتلك محار اللآلئ السوداء، من بين أنواع المحار، قيمة خاصة وهو كثير جداً، وكانت البحيرة الضحلة تقدم عملياً كميات لا تنضب منه للمستوطنين البولينسيان، وهو النوع نفسه الذي يتم استخراج اللآلئ السوداء الشهيرة منه اليوم. إضافة إلى أنه يمكن أكل المحار نفسه، كانت صدفته السميكة التي يصل طولها إلى ثماني بوصات مادة أولية مثالية صنع منها البولينسيان صنانير صيد السمك، وأدوات لتقشير وبرش الخضار، والحلي.

يهطل على الجزر العالية في منغريفا ما يكفي من الأمطار لجريان ينابيع وجداول مؤقتة، وكان عليها أصلاً غابات. في المساحة الضيقة من الأرض المنبسطة قرب السواحل، بنى المستوطنون البولينسيان مستعمراتهم. وزرعوا على المنحدرات خلف القرى المحاصيل مثل البطاطا الحلوة، وتمت زراعة مصاطب المنحدرات والأراضي المنبسطة تحت الينابيع بالتارو، وسقايتها بمياه الينابيع، وكان يتم زراعة الأشجار المثمرة مثل أشجار الخبز والموز على ارتفاعات أعلى. بتلك الطريقة، كان يمكن للزراعة وصيد الأسماك وجمع المحار أن تغذي البشر لعدة آلاف من السنين على منغريفا، الذين كان عددهم أكبر بعشرة أضعاف من أعداد سكان بتكارين وهندرسون مجتمعتين في أزمان قديمة في بولينسية.

من وجهة نظر البولينسيان، كانت نقطة ضعف منغريفا الأكثر أهمية افتقارها إلى حجارة عالية الجودة لصناعة الفؤوس والأدوات الحجرية الأخرى. (تمتلك الولايات المتحدة كل الموارد الطبيعية المهمة عدا احتياطيات غنية بالحديد). لا تقدم الجزر المرجانية في منغريفا حجراً طبيعياً جيداً على الإطلاق، وحتى الجزر البركانية لا يوجد فيها سوى بازلت قاسٍ نسبياً. كان ذلك مناسباً لبناء البيوت وجدران الحدائق، واستعماله حجارة مواقد، وتصنيع مراسي قوارب الكانو ومدق (هاون) طعام وأدوات أخرى منه، لكن لا يمكن صناعة سوى فؤوس ذات نوعية رديئة من البازلت القاسي.

لحسن الحظ، تم تعويض ذلك النقص بشكل رائع من بتكارين، الجزيرة البركانية الأصغر كثيراً (2 ونصف ميل مربع) والأشد انحداراً، التي تقع على بعد 300 ميل إلى الجنوب الشرقي من منغريفا. تخيّل الإثارة عندما اكتشفت قوارب كانو منغريفا الأولى

بتكارين بعد رحلة استغرقت عدّة أيام في المحيط الشاسع، رست على شاطئها المناسب، وتسلقت المنحدرات ووصلت إلى مقلع داون روب، المكان الوحيد في جنوب شرق بولينسية الذي يحتوي على زجاج بركاني، ويمكن استعمال المادة المستخرجة منه لصنع أدوات حادة لتنفيذ عمليات قطع دقيقة – كانت تلك مقصات ومشارط البولينسيان. لا بد أن شعورهم بالإثارة تحول إلى ابتهاج عندما اكتشفوا، على بعد ميل آخر إلى الغرب على طول الشاطئ، عرق تاوتاما من البازلت الرائع الذي أصبح أكبر مقلع في جنوب شرق بولينسية لصناعة الفؤوس.

من ناحية أخرى، قدمت بتكارين فرصاً أوسع كثيراً مما كان متوافراً على منغريفا. كان فيها جداول مؤقتة، وتضم غاباتها أشجاراً طويلة كفاية لتصنيع هياكل قوارب الكانو. لكن انحدار تضاريس بتكارين الشديد وصغر مساحتها الإجمالية كانت تعني أن منطقة السهل المناسبة للزراعة صغيرة جداً. ومشكلة جدّية بالقدر نفسه هي أن ساحل بتكارين يفتقر للحيد الصخري، وقاع البحر الذي يحيط بها ينحدر بشدة مما يجعل إمكانية صيد الأسماك والبحث عن المحار أقل مما هي عليه في منغريفا. كانت بتكارين، على وجه الخصوص، تفتقر لأماكن تواجد محار اللؤلؤ الأسود المفيد جداً بوصفه طعاماً وفي صناعة الأدوات. لهذا ربما لم يتجاوز عدد سكان بتكارين الإجمالي في ذلك الوقت مئة شخص. يصل عدد المنحدرين من متمردي باونتي ورفاقهم من البولينسيان الذين يعيشون على بتكارين اليوم إلى 52 شخصاً فقط. عندما ارتفع عددهم من 27 مستوطناً في المجموعة الأصلية سنة 1790م إلى 194 انحدروا من سلالة هؤلاء سنة 1856م، أساء هؤلاء السكان استغلال الإمكانيات الزراعية في بتكارين، وكان على الحكومة البريطانية إجلاء معظم المستوطنين إلى جزيرة نورفولك البعيدة.

الجزيرة المأهولة المتبقية في جنوب شرق بولينسية، هندرسون، هي الأكبر (14 ميلاً مربعاً) لكنها الأبعد أيضاً (100 ميل شمال شرق بتكارين، 400 ميل شرق منغريفا) والأكثر تهميشاً من حيث الوجود البشري. بخلاف منغريفا وبتكارين، فإن هندرسون ليست بركانية وإنما في الواقع جزيرة مرجانية دفعتها العوامل الجيولوجية 100 قدم فوق سطح البحر. وهندرسون خالية من البازلت أو الصخور الأخرى المناسبة لصناعة

الأدوات. ذلك قيد شديد لمجتمع من صانعي الأدوات الحجرية. كان هناك قيد شديد آخر لأي كائن بشري يتمثل بأن هندرسون لا تمتلك جداول أو مصادر مياه عذبة يمكن الاعتماد عليها، لأن الجزيرة تتألف من أحجار كلسية مسامية. في أفضل الحالات، وبعد بضعة أيام من هطل الأمطار الذي لا يمكن توقعه، يرشح الماء من سقوف الكهوف، ويمكن العثور على حفر من الماء على الأرض. هناك أيضاً نبع للماء العذب يخرج من المحيط على بعد نحو 20 قدماً قبالة الشاطئ. في الشهور التي قضاها مارشال فايزلر على هندرسون، وجد أن الحصول على ماء عذب حتى مع وجود قماش مشمّع جديد لجمع الماء يتطلب جهداً مستمراً، وكان عليه استعمال الماء المالح لمعظم طهوه وكل استحمامه وقضاء حاجته.

حتى التربة على هندرسون مليئة بالثقوب الصغيرة بين الأحجار الكلسية. تصل أطول أشجار الجزيرة إلى ارتفاع 50 قدماً فقط وليست كبيرة بما يكفي لصناعة هياكل قوارب الكانو منها. الغابة التي تتشكل منها والغطاء النباتي السميك كثيفة للغاية لدرجة أنها تتطلب سكيناً كبيرة للدخول بينها. شواطئ هندرسون ضيقة وتقتصر على الطرف الشمالي، ويتألف ساحلها الجنوبي من منحدرات صخرية عمودية حيث يستحيل أن يرسو قارب، والطرف الجنوبي من الجزيرة منطقة صخر ماكاتي يتداخل مع صفوف من التضاريس الكلسية والصدوع الحادة مثل السكين. لم تصل إلى ذلك الطرف الجنوبي سوى ثلاث مجموعات من الأوروبيين، كانت إحداها مجموعة فايزلر. استغرق الأمر من فايزلر، الذي كان يرتدي أحذية للمشي، خمس ساعات لقطع الأميال الخمسة من ساحل هندرسون الشمالي إلى ساحلها الجنوبي حيث عثر على ملجأ صخري كان يشغله سابقاً بولينسيان حفاة.

مقابل تلك النقاط السلبية المخيفة، تمتلك هندرسون عوامل جذب. يعيش في الحيد البحري والمياه الضحلة القريبة منه الكركند، وسرطان البحر، والأخطبوط، وتشكيلة محدودة من الأسماك والمحار لسوء الحظ، ليس بينها محار اللآلئ السوداء. يوجد على هندرسون الشاطئ الوحيد المعروف في جنوب شرق بولينسية لأوكار السلاحف، حيث تأتي سلاحف خضراء إلى الشاطئ لوضع البيض بين كانون الثاني وآذار من كل سنة.

كانت هندرسون في السابق موطناً لأعشاش 17 نوعاً من الطيور البحرية على الأقل، بما في ذلك مستعمرات النوء التي ربما كان يوجد فيها ما يصل إلى ملايين الطيور، التي كان يمكن الإمساك بكبارها وصغارها بسهولة في العش ما يكفي لعدد سكان يبلغ مئة نسمة يحتاج كل منهم إلى طائر واحد في اليوم دون تعريض بقاء المستعمرة للخطر. كانت الجزيرة أيضاً موطناً لتسعة أنواع من طيور اليابسة المقيمة، خمسة منها لا تستطيع الطيران أو تطير مسافة صغيرة مما يجعل الإمساك بها سهلاً، وثلاثة منها أنواع كبيرة من الحمام التي لا بد أنها كانت لذيذة بشكل خاص.

تجعل كل تلك الميزات من هندرسون مكاناً رائعاً لقضاء نزهة بعد الظهر على الشاطئ، أو عطلة قصيرة تغدق فيها على نفسك بالطعام البحري والطيور والسلاحف لكنها مكان خطير عندما يحاول المرء الإقامة فيه بشكل دائم. أظهرت اكتشافات فايزلر، لدهشة كل من كان قد رأى أو سمع بهندرسون، أن الجزيرة كانت بكل تأكيد تضم بين جنباتها عدداً صغيراً من السكان الدائمين، الذين ربما كان يصل عددهم إلى بضع مئات بذلوا جهوداً كبيرة من أجل البقاء. وجاء الإثبات على وجودهم السابق عبر 98 عظماً وأسنان بشرية تعود على الأقل إلى 10 راشدين (رجال ونساء، عمر بعضهم أكثر من 40 سنة)، وستة فتيان وفتيات مراهقين، وأربعة أطفال بأعمار تتراوح بين 5 إلى 10 سنوات. وتشير عظام الأطفال خاصة إلى وجود دائم، لأن أهل جزيرة بتكارين المعاصرين لا يأخذون عادة أي أطفال يافعين عندما يزورون هندرسون لجمع الحطب والطعام البحري.

يظهر دليل آخر على وجود البشر في ركام الدفن الكبير، الذي يعد الأكبر في جنوب شرق بولينسية، ويمتد 300 ياردة طولاً و30 ياردة عرضاً على طول شاطئ الساحل الشمالي المواجه للممر الوحيد عبر حيد هندرسون البحري. يوجد بين بقايا الركام الذي تركته أجيال من الناس، وتم تحديده في حفر اختبار صغيرة عمل عليها فايزلر وزملاؤه، كميات كبيرة من حسك الأسماك (14.751 حسكة فقط في ثلثي ياردة مربعة من الرمل الذي خضع للاختبار!)، إضافة إلى 42.213 عظم طير تحتوي آلاف عظام الطيور البحرية (ولا سيما النوء، والخرشنة، وطيور استوائية أخرى) وآلاف عظام طيور اليابسة

(ولا سيما الحمام غير القادر على الطيران، ودجاج الماء، والطيطوى). عندما يستنتج المرء من عدد العظام في حفر اختبار فايزلر الصغيرة العدد الكلي في الكومة كلها، يقدّر بأن أهل جزيرة هندرسون استهلكوا عشرات ملايين الأسماك والطيور في قرون. يدل أقدم تاريخ يرتبط بالبشر تم تحديده من عينة مأخوذة من تلك الكومة بوساطة الكربون الإشعاعي، وثاني أقدم تاريخ من شاطئ أوكار السلاحف على الساحل الشمالي الشرقي، على أن البشر استوطنوا أولاً في تلك المناطق حيث يمكنهم أن يحصلوا لأنفسهم على طعام بري.

أين يمكن للناس أن يعيشوا على جزيرة ليست أكثر من حيد مرجاني مرتفع تغطيه أشجار قليلة الارتفاع؟ هندرسون فريدة بين الجزر المأهولة أو التي كانت مأهولة سابقاً من قبل البولينسيان لخلوها شبه التام من أي دليل على أبنية، مثل البيوت والمعابد المعتادة. يوجد ثلاثة دلائل فقط على أي بناء: حجارة مرصوفة، وثقوب أعمدة في كومة القمامة، تشير إلى أساسات بيت أو ملجأ؛ وجدار واحد منخفض للحماية من الرياح، وبعض الألواح من صخور الشاطئ لحفرة الدفن. بدلاً من ذلك، يحتوي عملياً كل كهف وملجأ صخري قرب الساحل وله أرضية منبسطة ويمكن الوصول إليه بسهولة - حتى الفجوات الصغيرة بعرض ثلاث ياردات وعمق ياردتين، التي تتسع بالكاد لبضعة أشخاص يلتمسون الحماية من الشمس - أنقاضاً تشير إلى وجود بشري سابق. عثر فايزلر على 18 ملجأً مشابهاً، 15 منها على السواحل الشمالية، والشمالية الشرقية والشمالية الغربية التي كان يتم الذهاب إليها بكثرة قرب الشواطئ الوحيدة، والثلاثة الباقية (كلها ضيقة للغاية) على الجروف الصخرية الشرقية والجنوبية. لأن هندرسون صغيرة بما يكفي، كان بمقدور فايزلر أساساً مسح الساحل كله، 18 كهفاً وملجأً صخرياً، إضافة إلى ملجأ على الشاطئ الشمالي، التي ربما كانت تشكل كل «دور» سكان هندرسون.

أظهر الفحم، وأكوام الحجارة والمواقع الباقية لزراعة المحاصيل أنه تم إحراق الجزء الشمالي الشرقي من الجزيرة وتحويله بجهد كبير إلى مواقع حدائق يمكن زراعة

المحاصيل فيها ضمن جيوب طبيعية من التربة، يتم توسيعها بتجميع حجارة سطح التربة في أكوام. بين محاصيل البولينسيان، والنباتات المفيدة التي قام المستوطنون بإدخالها، التي تم تحديدها في مواقع هندرسون الأثرية أو التي لا تزال تنمو وحدها في هندرسون اليوم، جوز الهند، والموز، وتارو السبخات، وربما تارو نفسه، وعدّة أنواع من الأشجار الحراجية التي يتم حرق قشور ثمارها لتوفير الإنارة، وأشجار الخطمي التي تقدم الألياف لصناعة الحبال، والبجلة (شجيرة قصيرة ذات سوق متعددة). كانت جذور الأخيرة السكرية طعاماً للطوارئ في أماكن أخرى من بولينسية، لكن الواضح أنها كانت طعاماً نباتياً أساساً على هندرسون. يمكن استعمال أوراق البجلة لصناعة الملابس، وسقوف المنازل، وتغطية الطعام. وتسهم كل تلك المحاصيل السكرية والنشوية في تقديم غذاء غني بالكربوهيدرات، وربما يفسر ذلك أن أسنان وفكوك أهل جزيرة هندرسون التي عثر عليها فايزلر كانت تحمل دلائل كافية على أمراض الأسنان، ويشكل تسوس الأسنان وفقدانها كابوساً لأي طبيب أسنان. كان معظم البروتين الذي يتناوله أهل الجزيرة يأتي من الطيور البرية والطعام البحري، لكن العثور على عظام خنازير أظهر أنهم اقتنوا أو كانوا يشترون خنازير أحياناً.

يمثّل جنوب شرق بولينسية مستوطنين على بعض الجزر المأهولة فقط. كانت منغريفا، التي ضمت أكبر عدد من السكان، مكتفية ذاتياً إلى حدٍ كبير من ضرويات حياة البولينسيان، عدا افتقارها إلى حجارة عالية الجودة. من بين الجزيرتين الباقيتين، كانت بتكارين صغيرة جداً، وهندرسون مهمشة للغاية من الناحية البيئية، ولم تستطع كل منهما احتواء سوى عدد صغير من السكان الذين لم يستطيعوا تأسيس مجتمع بشري قابل للحياة على المدى البعيد. كان ينقص كلاهما أيضاً موارد مهمة – نجد هندرسون، التي لا نحلم نحن –المعاصرين– بالذهاب إليها حتى لقضاء عطلة نهاية أسبوع دون صندوق أدوات كامل، ومياه شرب، وطعام غير بحري، مثيرة للدهشة لأن البولينسيان استطاعوا البقاء هناك مستوطنين. لكن كلاً من بتكارين وهندرسون تتمتعان بعوامل جذب للبولينسيان: حجارة عالية الجودة في الأولى، وطعام بحري وفير وطيور كثيرة على الأخيرة.

كشفت تنقيبات فايزلر الأثرية دليلاً شاملاً عن التجارة بين كل تلك الجزر الثلاث، حيث كان تعويض ما ينقص إحدى الجزر يتم من فائض جزيرة أخرى. يمكن تحديد عمر المواد التجارية، حتى تلك (مثل الحجارة) التي تفتقر للكربون العضوي الضروري لتحديد عمرها بوساطة الكربون الإشعاعي، بقياس الكربون الإشعاعي في الفحم المستخرج من الطبقة الأثرية نفسها. بتلك الطريقة، استنتج فايزلر أن التجارة بدأت على الأقل في السنة 1000 ميلادية، وربما تزامن ذلك مع قيام مستعمرة البشر الأولى، واستمر عدّة قرون. يمكن القول إن الكثير من المواد التي تم العثور عليها في مواقع فايزلر على هندرسون كانت مستوردة لأنها مصنوعة من مواد أجنبية على هندرسون: صنارة وأداة لتقشير الخضار من صدف المحار، وأداة قطع من الزجاج البركاني، وفؤوس بازلتية وحجارة مواقد.

من أين جاءت تلك المستوردات؟ التخمين المعقول هو أن صدفة المحار لصناعة الصنانير جاءت من منغريفا، لأن المحار متوافر هناك بكثرة لكنه غير موجود على بكتارين إضافة إلى هندرسون أيضاً، والجزر الأخيرة التي يوجد فيها محار بعيدة أكثر من منغريفا. تم العثور أيضاً على بعض المصنوعات اليدوية من صدف المحار على بكتارين، وهناك افتراض مشابه أن يكون قد جاء من منغريفا. لكن تحديد أصول الأدوات المصنوعة من الحجر البركاني التي تم العثور عليها في هندرسون مشكلة أكثر صعوبة، لأنه يوجد في كل من منغريفا وبكتارين، إضافة إلى العديد من جزر بولينسية البعيدة الأخرى، مصادر بركانية.

طوّر فايزلر أو عدّل تقنيات للتمييز بين الحجارة البركانية من مصادر مختلفة. تنفث البراكين أنواعاً مختلفة من الحمم، التي يتميز بينها البازلت (صنف الحجر البركاني المتوافر على منغريفا وهندرسون) بتركيبته الكيميائية ولونه. على أي حال، يختلف البازلت من جزر مختلفة، وحتى من مقالع مختلفة على الجزيرة نفسها، بعضه عن بعض بتفاصيل تركيبته الكيميائية، مثل محتواه النسبي من العناصر الرئيسة (مثل السليكون والألمنيوم)، والعناصر الثانوية (مثل النيوبوم والزركونيوم). يوجد اختلاف أدق يتمثل في وجود عنصر الرصاص بشكل طبيعي بعدة نظائر (أي: عدة أشكال تختلف بشكل طفيف

في وزنها الذري)، التي تختلف نسبها أيضاً من مصدر بازلت إلى آخر. فيما بجيولوجي، تشكل كل تفاصيل التركيبة تلك بصمة ربما تسمح للمرء بتحديد الجزيرة أو المقلع الذي جاءت منه الأداة الحجرية.

حلل فايزلر مع أحد زملائه التركيبة الكيميائية، ونسب نظائر الرصاص في عشرات الأدوات الحجرية والقطع الصخرية (ربما تعرضت للكسر في سياق تصنيع أو إصلاح الأدوات الحجرية) التي عثر عليها من طبقات تعود لأزمان مختلفة في المواقع الأثرية على هندرسون. للمقارنة، حلل الصخور البركانية من مقالع وطبقات صخرية في منغريفا وبتكارين، التي قد تكون على الأرجح مصدر الحجارة المستوردة إلى هندرسون. ليكون متأكداً فقط، حلل أيضاً الصخور البركانية من جزر بولينسية التي تقع على مسافة أبعد ومن غير المرجح أن تكون مصدراً لمستوردات هندرسون، بما في ذلك هاواي، والفصح، وماركيز، وسوسايتي وساموا.

كانت النتائج التي ظهرت عن تلك التحاليل واضحة. جاءت كل القطع التي تم تحليلها من الزجاج البركاني على هندرسون من مقلع دون روب في بتكارين. وقد تم التوصل إلى تلك النتيجة سلفاً نتيجة الفحص البصري للقطع، حتى قبل إجراء التحليلات الكيميائية، لأن لون زجاج بتكارين الصخري مميز تماماً مع بقع سوداء ورمادية. جاءت معظم فؤوس هندرسون البازلتية، وشظايا البازلت التي نتجت عن عملية تصنيع الفؤوس، من بتكارين، لكن بعضها جاء من منغريفا. على منغريفا نفسها، رغم إجراء أبحاث على المصنوعات الحجرية أكثر مما حدث على هندرسون، كان واضحاً أنه تم تصنيع بعض الفؤوس من بازلت بتكارين، الذي تم استيراده بسبب جودته التي يتفوق بها على بازلت منغريفا. على العكس، جاءت معظم الحجارة البازلتية التي تم العثور عليها في هندرسون من منغريفا، لكن قلة منها جاءت من بتكارين. كانت مثل تلك الحجارة تستعمل عادة في بولينسية للمواقد، ويتم رفع حرارتها لاستعمالها في الطهو، تماماً كما يتم استعمال قطع الفحم في شي اللحم اليوم. تم العثور على العديد من حجارة المواقد تلك في حفر للطهو على هندرسون وكانت عليها علامات تثبت تعرضها للحرارة، مما يؤكد وظيفتها المفترضة.

بالمختصر، أثبتت الدراسات الأثرية الآن وجود تجارة مزدهرة سابقة بالمواد الخام وربما بالأدوات المصنّعة أيضاً: صدف المحار، من منغريفا إلى بتكارين وهندرسون؛ والزجاج البركاني، من بتكارين إلى هندرسون؛ والبازلت، من بتكارين إلى منغريفا وهندرسون، ومن منغريفا إلى هندرسون. إضافة إلى ذلك، خنازير بولينسية وموزها، تارو والمحاصيل الرئيسة الأخرى وهي أنواع لم تكن موجودة على جزر بولينسية قبل وصول البشر. إذا كان تم استيطان منغريفا قبل بتكارين وهندرسون، كما يبدو محتملاً لأن منغريفا أقرب الثلاثة إلى جزر بولينسية أخرى، فإن التجارة من منغريفا ربما تكون جاءت بمحاصيل لا غنى عنها أيضاً إلى بتكارين وهندرسون. في الوقت الذي تم فيه تأسيس مستعمرات منغريفا على بتكارين وهندرسون، كانت قوارب الكانو التي تحمل مستوردات من منغريفا تمثل حبلاً سرياً ضرورياً لرفد المستعمرات الجديدة بالسكان والغذاء، إضافة إلى دورها الآخر بوصفها حبل إنقاذ دائماً.

فيما يخص المنتجات التي كانت هندرسون تصدّرها إلى بتكارين ومنغريفا بالمقابل، لا يمكننا سوى التخمين فقط. لا بد أنها كانت مواد عرضة للتلف ولهذا لم تظهر في مواقع بتكارين ومنغريفا الأثرية، نظراً إلى افتقار هندرسون للحجارة أو المحار الجدير بالتصدير. إحدى المنتجات المحتملة هي سلاحف البحر الحية، التي تتوالد اليوم في جنوب شرق بولينسية فقط على هندرسون، التي كانت تعدُّ في كل أنحاء بولينسية طعاماً فاخراً للغاية يأكله الزعماء فقط - مثل الكمأة والكافيار هذه الأيام. منتج آخر محتمل هو الريش الأحمر من ببغاء هندرسون، وحمام الفاكهة، ودجاج الماء أحمر الذيل، الذي كان مادة فاخرة أخرى تستعمل للزينة وعباءات الريش في بولينسية، وتشبه الذهب وفرو السمّور اليوم.

على أي حال، لم تكن مبادلات المواد الأولية، المصنّعة والفاخرة حينها، كما هي الحال اليوم، الحافز الوحيد للتجارة والسفر عبر المحيط. حتى بعد أن ازداد عدد سكان بتكارين وهندرسون إلى الحد الأقصى الممكن، بقيت أعدادهم -نحو مئة وبضع عشرات على التوالي- منخفضة جداً ولم يكن الناس في سن الزواج يجدون الكثير من

الشركاء المحتملين على الجزيرة، وكان معظم هؤلاء الشركاء أقارب لا يمكنهم الزواج نظراً لتحريم سفاح القربى. لهذا كان تبادل شركاء الزواج عاملاً إضافياً مهماً للتجارة مع منغريفا. كانت تفيد أيضاً في انتقال أشخاص يتقنون الصناعات اليدوية ويمتلكون مهارات تقنية عالية من سكان منغريفا الأكثر عدداً إلى بتكارين وهندرسون، وفي إعادة استيراد محاصيل تعرضت للفناء في مناطق بتكارين وهندرسون الزراعية الصغيرة. بالطريقة نفسها، كانت الأساطيل من أوروبة مؤخراً ضرورية ليس فقط لحمل السكان والغذاء لكن أيضاً لاستمرار مستعمرات أوروبة في ما وراء البحار في أمريكة وأسترالية، التي كانت بحاجة لوقت طويل من أجل تطوير حتى شبه اكتفاء ذاتي.

من وجهة نظر أهل جزيرتي منغريفا وبتكارين، كانت لا تزال هناك وظيفة أخرى للتجارة مع هندرسون. وكانت الرحلة من منغريفا إلى هندرسون تستغرق أربعة أو خمسة أيام بقوارب الكانو، ومن بتكارين إلى هندرسون نحو يوم واحد. تستند وجهة نظري الخاصة عن الرحلات البحرية في قوارب المحيط الهادئ الأصلية على رحلات أقصر كثيراً، وقد تركتني دائماً خائفاً من انقلاب الكانو أو تحطّمه الذي كاد يكلفني مرة حياتي. يجعل ذلك فكرة رحلة عدة أيام عبر المحيط الشاسع غير مقبولة لي، وهي شيء وحدها الحاجة الماسة لإنقاذ حياتي قد تدفعني لخوضها. لكن فيما يخص المحيط الهادئ المعاصرة، التي تبحر بقوارب الكانو خمسة أيام فقط لشراء لفائف التبغ، تعد الرحلات جزءاً من الحياة العادية. أما فيما يتعلق بسكان منغريفا أو بتكارين السابقين من البولينسيان، فقد كانت زيارة إلى هندرسون تستغرق أسبوعاً تعد رحلة رائعة، وفرصة لتناول وجبة من السلاحف الشهية وبيضها، وأخرى من ملايين الطيور البحرية التي كانت توجد هناك. وأمر آخر يخص أهل جزيرة بتكارين خاصة؛ كان العيش على جزيرة هندرسون التي لا يوجد فيها حيد بحري وفيها ينابيع داخلية عذبة أو أماكن غنية بالمحار مغرياً لصيد السمك، وجمع المحار، وفرصة للتسكع على الشاطئ. لسبب ما، يذهب المنحدرون من متمردي باونتي اليوم، الذين يشعرون بالسأم من سجن جزيرتهم الصغيرة، في «إجازة» إلى شاطئ الجزيرة المرجانية التي تبعد عدّة مئات من الأميال.

تبين أن منغريفا كانت العقدة الجغرافية لشبكة تجارية كبيرة جداً، كانت فيها الرحلة البحرية إلى بتكارين وهندرسون على بعد عدّة مئات الأميال إلى الجنوب الشرقي الأقصر. تصل الرحلات الأطول، التي تقطع كل منها نحو ألف الميل، منغريفا بماركيز إلى الشمال والشمال الغربي، وسوسايتي إلى الغرب والشمال الغربي، وربما إلى أستراليا إلى الغرب. توفر عشرات الجزر المرجانية في أرخبيل تواموتو محطات توقف صغيرة وسط الطريق للاستراحة أثناء تلك الرحلات. تماماً كما كان عدد سكان منغريفا الذي يصل إلى عدة آلاف شخص يفوق عدد سكان بتكارين وهندرسون، كانت أعداد سكان سوسايتي وماركيز (نحو مئة ألف شخص لكل منها) تفوق عدد سكان منغريفا.

انبثق دليل قوي على هذه الشبكة التجارية الكبيرة في سياق دراسات فايزلر عن البازلت، عندما حالفه الحظ في تحديد فأسين من البازلت أصلهما من مقلع ماركيز وفأس من مقلع سوسايتي بين 19 فأساً تم العثور عليها في منغريفا وتحليلها. ظهرت أدلة أخرى من الأدوات التي تتنوع نماذجها من جزيرة إلى أخرى، مثل الفؤوس، والبلطات، وصنانير الصيد، وطُعم الأخطبوط، والحربون، والمبارد. يؤكد التشابه في النماذج بين الجزر، وظهور أمثلة عن أحد نماذج أدوات جزيرة ما على جزيرة أخرى، قيام التجارة خاصة بين ماركيز ومنغريفا نحو سنة 1100 - 1300 ميلادية التي تشير إلى وصول الرحلات بين الجزر إلى ذروتها في ذلك الوقت. جاءت أدلة أخرى من دراسات قام بها اللغوي ستيفن فيشر، الذي استنتج أن لغة منغريفا كما هي معروفة في الأوقات الحالية تنحدر من لغة جاءت أصلاً إلى منغريفا مع مستوطنيها الأوائل ثم تطورت كثيراً بعد ذلك عبر الاحتكاك لاحقاً مع لغة جنوب شرق ماركيز (الجزء من أرخبيل ماركيز الأقرب إلى منغريفا).

فيما يخص أهداف تلك التجارة والاتصال في الشبكة الأكبر، كانت إحداها بالتأكيد اقتصادية، كما هو هدف شبكة منغريفا/بتكارين/هندرسون الأصغر، لأن جزر الشبكة كانت تمد بعضها بعضاً بالموارد. كانت ماركيز «الوطن الأم»، مع يابسة وعدد سكان كبيرين ومقلع بازلت جيد واحد، لكنها تفتقر للموارد البحرية لأنه لم يكن عليها بحيرات ضحلة أو تتمتع بحيد بحري. يوجد في منغريفا، «الوطن الثاني»، أهوار كبيرة وغنية،

لكن مساحتها صغيرة وعدد سكانها قلائل ونوعية الحجارة الموجودة فيها ليست جيدة. كانت مستعمرات منغريفا على بتكارين وهندرسون تعاني ضيق مساحة الأرض وقلة عدد السكان، لكن الحجارة جيدة في بتكارين والطعام رائع على هندرسون. أخيراً، لم تكن مساحة أرخبيل تواموتو كبيرة، ولا يوجد فيه حجارة على الإطلاق، لكن هناك طعام بحري شهي وموقع متوسط مناسب.

استمرت التجارة ضمن جنوب شرق بولينسية من نحو 1000 إلى 1450م، كما هو واضح من المصنوعات اليدوية في الطبقات الأثرية التي تم تحديد عمرها بوساطة الكربون الإشعاعي على هندرسون. لكن بحلول سنة 1500م، كانت التجارة قد توقفت، في كل من جنوب شرق بولينسية والاتجاهات الأخرى التي كانت منغريفا عقدة لها. لم تعد تلك الطبقات الأثرية المتأخرة على هندرسون تحتوي المزيد من صدف محار منغريفا، أو زجاج بتكارين البركاني، أو بازلت بتكارين المناسب لأدوات القطع، ولا المزيد من حجارة المواقد البازلتية من منغريفا أو بتكارين. كان واضحاً أن قوارب الكانو لم تعد تصل بعد ذلك سواء من منغريفا أو بتكارين. نظراً لأن الأشجار على هندرسون نفسها صغيرة للغاية ولا يمكن الاستفادة منها في صناعة قوارب الكانو، كان سكان هندرسون الذين يقدر عددهم آنذاك ببضع عشرات عالقين على واحدة من أبعد وأسوأ الجزر في العالم. واجه أهل جزيرة هندرسون مشكلة بدا لنا أن لا حل لها: كيفية العيش على حيد مرتفع من الحجر الكلسي دون أي لحم، ودون حجارة عدا الكلسية منها، ودون مستوردات من أي نوع.

عاشوا بطرق أذهلتني، وكانت مزيجاً من الإبداع، واليأس والإثارة. فيما يخص مواد الفؤوس الأولية، استبدلوا بالحجارة أصدافَ الحلزون العملاق. ولمثاقب الحفر، استعملوا عظام الطيور. ولحجارة المواقد، تحوّلوا إلى الحجارة الكلسية أو الفحم أو أصداف الحلزون العملاق، وجميعها أقل جودة من البازلت لأنها تكتسب الحرارة في وقت أقل، وتتعرض للكسر بعد الحرارة، ولا يمكن استعمالها مرات كثيرة. أخذوا يصنعون صنانير الصيد آنذاك من أصداف السرطان، الأصغر كثيراً من صدفة محار اللؤلؤة السوداء،

لهذا لم يكن يتم صنع سوى صنارة واحدة من كل صدفة (بدلاً من عشر صنانير من صدفة محارة)، وأدّى ذلك إلى تقييد الأنواع التي يمكن صناعتها.

تشير تواريخ الكربون الإشعاعي إلى أن سكان هندرسون، الذين كافحوا بتلك الطريقة، وكان عددهم أصلاً لا يتجاوز بضع عشرات، قد نجحوا في العيش عدّةَ أجيال، أو ربما قرناً أو نحو ذلك، بعد قطع كل اتصال مع منغريفا وبتكارين. بحلول 1606م، وهي سنة «اكتشاف» هندرسون من قبل الأوروبيين، عندما رسا قارب من سفينة تمر بجانبها على الجزيرة دون أن يشاهد ركابها أحداً، لم يكن هناك أحد من سكان هندرسون. كان سكان بتكارين قد اختفوا سنة 1790م على الأكثر (السنة التي وصل فيها متمردو باونتي ليجدوا الجزيرة غير مأهولة)، وربما اختفوا قبل ذلك بكثير.

لماذا توقفت علاقات هندرسون مع العالم الخارجي؟ كانت تلك المحصلة نتيجة تغيرات بيئية مدمّرة على منغريفا وبتكارين. في كل أنحاء بولينسية، قاد الاستيطان البشري على جزر كانت قد تطورت ملايين السنين في غياب البشر إلى الإضرار بالبيئة وانقراض النباتات والحيوانات بشكل كبير. وكانت منغريفا خاصة عرضة للتصحر لمعظم الأسباب التي حدّدتها لجزيرة الفصح في الفصل السابق: ارتفاع كبير، وانخفاض تساقط الرماد والغبار، وهلم جرّا. كانت الأضرار البيئية فادحة في داخل منغريفا المليء بالتلال، الذي أسهم معظم أهل الجزيرة في تصحره من أجل زراعة حدائقهم. نتيجة لذلك، حملت الأمطار التربة السطحية إلى أسفل المنحدرات الصخرية، وحل السرخس مكان الغابة لأنه ضمن النباتات القليلة التي تستطيع النمو على الأرض التي تعرضت للتعرية. وأزالت تعرية التربة في التلال معظم المناطق المتوافرة سابقاً على منغريفا الصالحة للزراعة ونمو الأشجار. وعمل التصحر بشكل غير مباشر على التقليل من كمية الأسماك أيضاً، لأنه لم تبق أشجار كبيرة بما يكفي لبناء قوارب الكانو: عندما «اكتشف» الأوروبيون منغريفا سنة 1797م، لم يكن لدى سكان الجزيرة قوارب كانو، وإنما أطواف فحسب.

مع وجود الكثير من الناس وقلة موارد الطعام، انزلق مجتمع منغريفا إلى كابوس الحرب الأهلية والجوع الشديد، التي يتذكر عواقبها بالتفصيل أهل الجزيرة المعاصرون.

فيما يخص البروتين، تحول الناس إلى أكل لحوم البشر، ولم يقتصر الأمر على أكل لحم الموتى وإنما تعداه ليصل إلى نبش القبور وتناول الجثث المدفونة أيضاً. اندلع قتال شرس على الأرض الزراعية الثمينة المتبقية، وأعاد الطرف الفائز توزيع أراضي الخاسرين. بدلاً من النظام السياسي الذي يستند إلى توارث الزعامة، تولى المقاتلون الذين لم يكن لهم إرث في الزعامة القيادة. ربما تبدو فكرة ديكتاتوريات عسكرية قزمة في شرق وغرب منغريفا، تتقاتل من أجل السيطرة على جزيرة لا يتعدى طولها خمسة أميال، مضحكة إن لم تكن مأساوية. كان صعباً في ظل كل تلك الفوضى السياسية توفير القوة البشرية والإمدادات الضرورية لرحلة عبر المحيط بقوارب الكانو، والخروج مدة شهر وترك الحديقة دون حراسة، حتى إذا كانت أشجار قوارب الكانو نفسها متوافرة آنذاك. مع انهيار منغريفا بوصفها عقدة للتجارة، تفككت كل شبكة شرق بولينسية التي كانت تضم ومنغريفا، ماركيز، وسوسايتي، وتواموتو، وبتكارين، وهندرسون كما هو موثق في دراسات فايزلر عن مصادر فؤوس البازلت.

مع أننا لا نعرف سوى القليل عن الأضرار البيئية على بتكارين، إلا أن التنقيبات الأثرية المحدودة التي أجراها فايزلر تشير إلى تصحر كبير وتعرية للتربة على تلك الجزيرة أيضاً. عانت هندرسون نفسها أيضاً أضراراً بيئية خففت من قدرة أهلها على الاستمرار في العيش؛ فانقرضت خمسة من أصل تسعة أنواع من طيور اليابسة عليها (ضمنها كل أنواع الحمام الكبير الثلاثة)، ومستعمرات نحو ستة من طيورها البحرية. ربما يعود سبب ذلك الانقراض إلى مزيج من العوامل منها اصطيادها لتكون طعاماً، وتدمير بيئتها نظراً لإحراق أجزاء من الجزيرة لتحويلها إلى حدائق، والفتك بها من قبل الجرذان التي وصلت على متن قوارب كانو البولينسيان. اليوم، تستمر تلك الجرذان في افتراس صغار وكبار الأنواع المتبقية من الطيور البحرية، التي لا يمكنها الدفاع عن نفسها لأنها تطورت في غياب الجرذان. لا يظهر دليل أثري على البستنة في هندرسون إلا بعد اختفاء تلك الطيور فقط، مما يشير إلى أن الناس وجدوا أنفسهم مضطرين للاعتماد على الحدائق لدى تضاؤل مصادر طعامهم الأصلية. اختفاء أنواع المحار في الطبقات المتأخرة من المواقع الأثرية على الساحل الشمالي لهندرسون يشير أيضاً إلى احتمال سوء استغلال تلك الثروة الحيوانية.

هكذا، قادت الأضرار البيئية إلى فوضى اجتماعية وسياسية وخسارة ألواح الخشب لصناعة قوارب الكانو، وقضت على التجارة البينية في جنوب شرق بولينسية. لا بد أن توقف التجارة قد أدّى إلى ظهور مشكلات لأهل منغريفا، الذين انقطعت صلاتهم آنذاك عن بتكارين، وماركيز وسوسايتي التي تمتلك موارد من الحجارة عالية الجودة لصناعة الأدوات. فيما يخص سكان بتكارين وماركيز، كانت النتائج أسوأ حتى: أخيراً، لم يبق أحد على قيد الحياة في تلك الجزر.

لا بد أن اختفاء سكان بتكارين وهندرسون نتج بطريقة ما عن قطع الحبل السري مع منغريفا. أضحت الحياة على هندرسون، الصعبة دائماً، أكثر صعوبة مع خسارة كل الحجارة البركانية المستوردة. هل مات الجميع في وقت واحد نتيجة كارثة شاملة، أم أن عدد السكان تراجع تدريجياً إلى شخص واحد عاش وحيداً مع ذكرياته أو ذكرياتها سنوات طويلة؟ حدث ذلك في الواقع للسكان الهنود على جزيرة سان نيكولاس قبالة لوس أنجلوس، الذين تراجع عددهم أخيراً إلى امرأة واحدة عاشت في عزلة تامة 18 سنة. هل قضى آخر شخص من أهل جزيرة هندرسون الكثير من الوقت على الشواطئ، وقتاً إثر آخر، يحدق إلى المحيط على أمل رؤية قوارب الكانو التي كانت قد توقفت عن المجيء، حتى أضحت ذكرى قارب الكانو ضبابية له؟

مع أن تفاصيل انطفاء جذوة الحياة البشرية على بتكارين وهندرسون تبقى غير معروفة، إلا أنني لا أستطيع التوقف عن التفكير في تلك المأساة الغامضة. جالت في ذهني نهايات متنوعة للفيلم، وقادت تفكيري بما أعرف أنه حدث حقاً لبعض مجتمعات الجزر الأخرى. عندما يعلق الناس معاً دون إمكانية للهجرة، لا يمكن للأعداء تخفيف التوترات بعد ذلك بفرض حالة ينبغي على هؤلاء التضامن فيها معاً. ربما انفجرت تلك التوترات على شكل عمليات قتل واسعة، دمرت لاحقاً مستعمرة متمردي باونتي على بتكارين نفسها. وربما يكون القتل بسبب نقص الطعام وأكل لحوم البشر، كما حدث على جزيرتي منغريفا والفصح؛ وكما حدث -أقرب للأمريكيين- مع حزب دونر في كاليفورنية. وربما تحول اليأس الذي أصاب الناس إلى انتحار جماعي، كالذي كان مؤخراً خيار 39 عضواً

من معتقد «بوابة الفردوس» قرب سان دييغو، كاليفورنية. وربما قاد اليأس بدلاً من ذلك إلى الجنون، وهو المصير الذي لقيه بعض أفراد بعثة استطلاع القطب الجنوبي البلجيكية، الذين علقت سفينتهم في الجليد أكثر من سنة بين 1898 - 1899. وربما تكون نهاية كارثية أخرى كالموت جوعاً، وهو مصير الحامية اليابانية التي انعزلت على جزيرة ويك أثناء الحرب العالمية الأولى، وربما زاد الطين بلة الجفاف، أو الأعاصير، أو تسونامي أو كوارث بيئية أخرى.

ثم تحول ذهني إلى نهايات أقل قسوة للفيلم. بعد عدة أجيال من العزلة على بتكارين أو هندرسون، كان الجميع في ذلك المجتمع المصغر الذي يتألف من مئة أو بضع عشرات الأشخاص أقارب لبعضهم، وكان الزواج قد أضحى مستحيلاً لهم دون اقتراف سفاح القربى. لهذا ربما يكون الناس قد كبروا معاً وتوقفوا عن إنجاب الأطفال، كما حدث مع آخر هنود الياهي الأحياء في كاليفورنية، الآشي الشهير وأصحابه الثلاثة. إن كان السكان قد تجاهلوا حقاً سفاح القربى المحرّم، ربما نتج عن التكاثر بينهم عاهات جسدية خلقية، كما حدث في الصمم الذي أصاب سكان جزيرة كروم مارثا قبالة ماساشوستس أو على جزيرة الأطلسي البعيدة تريستان دا كونها.

ربما لا نعرف أبداً كيف انتهى الفيلم فعلاً على بتكارين وهندرسون. بغض النظر عن التفاصيل النهائية، المحور الرئيس للقصة واضح. ابتلي سكان منغريفا، وبتكارين وهندرسون بأضرار جسيمة في بيئاتهم ودمّروا العديد من الموارد الضرورية لحياتهم. كان عدد سكان جزيرة منغريفا كبيراً بما يكفي للاستمرار في العيش، وإن كان في ظروف سيئة للغاية ومستوى معيشة منخفض تماماً. لكن منذ البداية، وحتى قبل تراكم الأضرار البيئية، بقي سكان بتكارين وهندرسون يعتمدون على استيراد المنتجات الزراعية، والتقانة، والحجارة، وأصداف المحار، والناس من الجزيرة الأم منغريفا. مع تراجع منغريفا وعدم قدرتها على تقديم الصادرات، لم تنفع حتى أكثر جهود التأقلم إخلاصاً في إنقاذ آخر الناس الذين كانوا يعيشون على بتكارين وهندرسون. مخافة أن تكون تلك الجزر ما تزال تبدو لك بعيدة للغاية في المكان والزمان لتكون على اتصال مع مجتمعاتنا المعاصرة، فكّر

فقط بشأن مخاطر (إضافة إلى فوائد) عولمتنا والتداخل المتزايد للاقتصاد العالمي. تؤثر العديد من العوامل المهمة اقتصادياً لكن الهشّة بيئياً (فكّر بالنفط) في من تبقى منا، تماماً كما أثّرت منغريفا في بتكارين وهندرسون.

obeikandl.com